

الرسالة الثامنة

الهوية الثقافية والتعلم

نحن بحاجة إلى أن نتساءل بيننا عن العلاقة بين الهوية الثقافية والتي تمتد دائماً عبر الطبقات الاجتماعية من ناحية ، وبين موضوع التعليم والممارسة التعليمية من ناحية أخرى . إن هوية المتعلمين لها علاقة بالمكونات الأساسية للمنهج وفيما هو مخفى به أو معلن عنه ، فضلاً عن قضية التدريس والتعليم .

لذلك يتضح بالنسبة لى أنه قبل أن نبدأ فى مناقشة موضوع هوية المتعلمين سواء متعلمين أو معلمين ، يجب أن نشير إلى أن " الهوية الثقافية " التى هى تعبير نستخدمه كثيراً لا ندعى أنه يستوعب كافة معانى هذه الظاهرة . والواقع أن سمة الثقافية الممتدة عبر مفهوم الطبقة الاجتماعية لا تتضمن فهم مصطلح الهوية ، فالحقيقة أننا رجالاً ونساء نصبح مخلوقات خاصة وفريدة .

لقد استطعنا خلال تاريخ الإنسانية كلها أن نميز أنفسنا عن طريق قراراتنا الخاصة كأفراد فى إطار الجماعة الإنسانية كلها ، ولكن فى سياق أوضاع المجتمع التى دونها لا نستطيع أن نكون كما نحن عليه الآن .

والحقيقة أيضاً أننا لسنا نتاج وراثتنا فحسب ، ولا محصلة ما نكتسبه فحسب ، وإنما نتكون من تلك العلاقة الدينامية بين ما نرثه وما نكتسبه . هناك علاقة بين ميراثنا وما أكد عليه (فرنسوا أجاكوب) فى مقابلة مع صحيفة لكورير التى تصدرها اليونسكو ، والتى لها دور هام فى فهم موضوعنا. يقول فى هذا الصدد " نحن مبرمجون على التعلم " ؛ لأنه لم يكن ممكناً مع اختراع التواجد الآدمى أن نكون شيئاً أكثر من الحياة نفسها ، حيث استطعنا من خلال المواد التى قدمتها لنا الحياة أن نميز أنفسنا كأفراد ، وأن نقرر ما نحن عليه ، وماذا سوف نكون . أضف إلى ذلك أنه عن طريقة اختراعنا الاجتماعى للغة التى من خلالها نتحدث عن العالم ، وأن نمثد من عالم الطبيعة الذى لم نصنعه إلى العوالم

الثقافية والتاريخية التي هي من صنعنا. ومن ثم أصبحنا فيها مجرد حيوانات مضطربة دائماً إلى عملية التعلم والبحث ، وهي عملية غدت ممكنة ، طالما أنه لا يمكننا أن نعيش إلا باهتمامنا بتحقيقه " وجود الغد والمستقبل " على حد تعبير جاكوب .

إن التعليم والبحث والذي يرتبط بهما عملية كل من التدريس والمعرفة ، لا تتنازل بدورها عن حالة الحرية التي لا تعتبر منحة ، بل إنها مسألة ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها ، بل إنها شرط لا يستقيم وجودنا دونه في هذا العالم ، وهي حالة يجب أن نقاتل من أجلها لأنها جزء من وجودنا .

ثم لأننا مبرمجون دون أن يكون ذلك محكوماً علينا ، ولأننا كذلك مفعول بنا في تشكيلنا ، لكننا في الوقت ذاته على وعى بعوامل التشكيل والتأثير فينا . لهذا كله أصبحنا قادرين على أن نحارب من أجل الحرية كعملية دائمة ليس لها نقطة نهاية . وكما يقول جاكوب : " إن البشر يحملون في خلاياهم الوراثة كل ما سوف يتمخض عنه مستقبلهم " (١) .

وهذا لا يعني أن حريتنا قد تختنق أو تذوب في مكونات الوراثة ، ومن ثم تختفي إمكانية الحياة الحرة في ثنايا هذه التكوينات الوراثة . ومع أنه مفعول بنا ومبرمجون ، لكنه غير محكوم علينا ، ولسوف نجد في الإطار الثقافي الميزة والسند بالتمتع بالحد الأدنى من الحرية القابل للنمو والزيادة . وكما يشير جاكوب أيضاً إلى أننا من خلال التعليم باعتباره تعبيراً ثقافياً ، نستطيع أن " نكتشف الملامح المحتملة للكروموسومات الوراثة " (٢) .

إن أهمية هوية كل فرد منا معلماً ومتعلماً كأداة في الممارسة التعليمية مسألة واضحة ، كما تبدو أهمية كياننا كمنتج للعلاقة المشحونة بالتوتر بين ما نرثه وما

(1) Francois Jacob, "Nous sommes Programme Maos Pour Apprendre", (Courrierde: UNESCO, February, 1991).

(2) Ibid.

نكتسبه . وفي بعض الأوقات يتدخل بقوة في هذه العلاقة وفي بنيتها الوراثية ما نكتسبه أيديولوجياً من خبراتنا الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالانتماء الطبقي من خلال مجموعة الرغبات ، والمشاعر والأحاسيس ، وهو ما يمكن تسميته (بقوة القلب) . ولذلك فإننا لسنا شيئاً ما أو شيئاً آخر . كذلك لسنا شيئاً فطرياً موروثاً أو مكتسباً خالصاً كذلك ، وإن ما يسمى بقوة الدم في التعبير الشعبي له تأثيره ولكنه ليس عاملاً محدداً ، كما أن وجود العنصر الثقافي وحده لا يشرح كل شيء . والواقع أن الحرية كعمل إبداعي للجنس البشري ، وكالمغامرة أو المخاطرة في الخلق لها علاقة وثيقة بما نرثه وبما نكتسبه .

إن عوائق التمتع بالحرية تتمثل بدرجة كبيرة في العوامل الاجتماعية والتاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ؛ حيث إن البنى والتكوينات الأيديولوجية تؤثر بدرجة أكبر من تأثير المكونات الوراثية . ولا نشك في قدرة الميراث الثقافي ، كما أننا لا نشك في أنه يجعلنا متطبعين فيقف بذلك في سبيل وجودنا الذاتي . والواقع أنه رغم أننا بشر مبرمجون ومحكومون وواعون بهذه الشروط ، فإننا لسنا مقيدين بها ، وهو ما يجعلنا نتغلب على قوة الميراث الثقافي .

إن التحولات في العالم المادى والهياكل المادية ومعها في الوقت ذاته الجهد التعليمي هي السبيل للتغلب على عوامل الوراثة كأسلوب غير ميكانيكي . ومع ذلك فليس في مقدورنا أن نبذل الجهد للتغلب على بعض الموروثات الثقافية التي تعيد نفسها من جيل إلى جيل ، والتي قد تبدو أحياناً أنها قد تجمدت ، وبالتالي نهمل أخذها بعين الاعتبار . إنه لمن الصحيح أحياناً أن التغيرات في البنى التحتية عادة ما تؤدي سريعاً إلى تغيير طرق التفكير التي استمرت لفترات طويلة .. إن ما نقصده من أخذ الموروثات بعين الاعتبار هو العمل على احترامها أولاً ؛ إذ إن هذا الاعتراف والاحترام من الشروط الأساسية اللازمة لتغييرها ، بيد أن هذا الاحترام لا يعنى تطبيقها . وعلى الجانب الآخر فمن الضروري أن نوضح حقيقة هامة ، مفادها أن الموروثات الثقافية تخرق جميع الطبقات

الاجتماعية .. ولذلك فإن لها شأنًا في كياننا ، كما أنها تميز الطبقة الاجتماعية التي تنتمي لها .

ودعونا نفكر قليلاً في الهوية الثقافية للمتعلمين ، وفي الاحترام الذى ندين به لها في ممارستنا التعليمية . وأعتقد أن الخطوة الأولى في هذا الاحترام هو الاعتراف بهويتنا أى الاعتراف بما نحن عليه في الممارسة الواقعية لأنشطتنا وبطرقنا في عمل الأشياء بشكل معين ، أو بالتفكير بطريقة معينة أو بالتحدث بشكل له خصوصياته ، كذلك لنا رغبات وعادات خاصة تجعل كل شخص يعترف بنفسه على أنه يشبه الآخرين ، وهؤلاء الآخرون لديهم أنماط من السلوك الطبقي مشابه لطبقته . وبفضل ممارسة تلك الفروق نكتشف أنفسنا بأن أكون أنا ، وتكون أنت .

ثم إنه لدينا ميل قوى لتأكيد أن ما يختلف عنا يعتبر أقل منا شأنًا ، ويبدأ هذا التفكير أساساً بزعم أن طريقة حياتنا ليست فقط جيدة بل إنها أفضل من الآخرين الذين يختلفون عنا . إن هذا هو عدم التسامح ، وهو التحيز الذى لا يقاوم في إنكار الفروق وتقديرها . وبالتالي فإن الطبقة المهيمنة التى تمتلك القوة التى تميزها عن الطبقات الأدنى ترفض أولاً الخلافات بينهما ، وثانياً لا تتظاهر بأى مساوية للمختلفين عنها ، وثالثاً ، لا تنوى أن يكون هؤلاء المختلفون متساويين معها في المستقبل ، بل إن ما ترمى إليه هو المحافظة على هذه الفروقات والحرص على بقاء المسافة الموجودة بينهما ، والاعتراف والتأكيد على انخراط هؤلاء الآخرين ودونية مستوياتهم في الواقع الحياتي .

إن أحد التحديات التى يواجهها المعلمون التقديميون ، الذين يختارون التدريس في المدارس الخاصة المتميزة بمصروفاتها هو الحرص على ألا يشعروا بأنهم أقل من طلاب الطبقة المسيطرة في تلك المدارس ، ممن سيئون في كبرياء معاملة مدرسيهم من الطبقات المتوسطة ويستهيئون بمكانتهم .

وعلى الجانب الآخر لا يجب على المعلمين أن يشعروا بالاستعلاء في نظام المدارس الحكومية العامة حيث يوجد طلاب العشوائيات من الطبقات الفقيرة ممن لا يجدون

وسائل راحة ، ولا يتاح لهم أكل جيد، ولا لباس نظيف ، ولا يتحدثون بشكل لائق حيث يستخدمون قواعد ومفردات ولهجات خاصة بهم .

ومما يجب على المدرسين التقدميين اتساق سلوكهم في الحالتين .. ففي الحالة الأولى عليهم عدم افتراض اتخاذ موقف عدائي للأخذ بالتأثر من الطلاب في المدارس الخاصة المتميزة ، أو أن يسمحوا لأنفسهم في الحالة الثانية أن تغريهم افتراضات تدنى أحوال أولئك الأطفال المساكين في المدارس العامة واعتبارهم مخلوقات عاجزة بطبيعتها. ومن ثم فإن عليهم ألا يضعوا أنفسهم في الحالة الأولى في موقع الثأر أو الخضوع ، بل عليهم أن يلتزموا بموقع الإنسان كمعلم يتحمل السلطة المسئولة . وعليهم كذلك في الحالة الثانية ألا يتخذوا الموقف الأبوى والمزدرى أحياناً لأطفال الطبقات الدنيا .

وعليه ، فإن النقطة الابتدائية هي الإدراك والاعتناع بأن التعليم ممارسة سياسية ، مما يجعلنا نعيد القول بأن المعلم إنسان سياسى ، وبالتالي من الضروري أن يعمل المدرس بالطريقة التي يختارها ، وهى ذات طابع سياسى قطعاً . هذا فضلاً عن ضرورة تمتعه بالكفاءة العلمية المطردة ، والتي تقتضى من المعلم تعرف واقع حياة طلابه وثقافتهم ولغتهم وألفاظهم وأساليب مخاطبتهم، حتى تتضح لديه عاداتهم ومعتقداتهم ومخاوفهم ورغباتهم ، التي قد لا تتفق بالضرورة مع العالم الذى يعيشه هو .

والواقع التدريسي التحضيرى لإعداد المعلم لا يمكن إدراكه في إطار التفكير النظرى ، أو بعيداً عن الاهتمام بالإطار المادى للعالم أو دون التفات إلى حساسية المتعلمين . والتفكير في تحقيق هذا العمل التحضيرى من خلال فصل الإطار النظرى عن الخبرات العملية بأحوال للمتعلم إنما يصبح ممكناً فحسب لدى ذلك المعلم ، الذى يرى أن المحتوى يمكن تدريسه مستقبلاً دون ارتباط بينه وبين خبرات المتعلم قبل أن يدخل المدرسة .. إن ذلك أمر غير معقول لمن يدرك عدم الانفصال بين السياق الواقعى والسياق النظرى . ومن ثم ، فإن بعض هؤلاء المعلمين يرون أن المحتوى لا يمكن تدريسه إلا بطريقة سلطوية فوقية قيادية ، كما لو أنه مجموعة من المسائل أو قطع من

المعلومات يمكن إقحامها أو وضعها إلى جانب الأجسام الواعية للطلاب ، والحقيقة هي أن التدريس والتعليم والمعرفة لا علاقة لها بهذه الممارسة الميكانيكية .

إن المدرسين في حاجة إلى أن يعرفوا ما يحدث في عالم الأطفال الذين يعملون معهم ، فهم في حاجة إلى معرفة أحلامهم ، ولغتهم التي من خلالها يدافعون بها بمهارة عن أنفسهم من العالم الذي يحيط بهم ، وفي حاجة كذلك إلى تعرف معلوماتهم التي اكتسبوها خارج المدرسة ، وكيف تم لهم ذلك .

ومنذ عامين شارك أستاذان من جامعة كامينياس وهما الفيزيائي (كارلوس أرجويلو والرياضي ادواردو سبستياني هيراري) في الندوة الجامعية بمدينة بارانت ، التي تم فيها مناقشة تدريس مادة الرياضيات والعلوم . وعندما عادا إلى الفندق بعد أول يوم وجدا مجموعة من الأطفال يطبّرون الطائرات الورقية في حقل مهجور ، فذهبا إليهم ودار بينهما الحوار التالي :

(الرياضي) سبستياني : كم متراً من الخيط تطلق لتنتقل به هذه الطائرة ؟

(الطفل) جلسون : خمسون متراً أو أقل أو أكثر .

سبستياني : وكيف تستطيع أن تحكم أنك أطلقت أكثر أو أقل من خمسين متراً ؟

جلسون : أنني أعقد عقدة كل مترين من الخيط ، وأعد العقد عندما يمر الخيط من يدي ، فأعرف كم متراً أطلقت .

سبستياني : وكم تقدر ارتفاع الطائرة الآن ؟

جلسون : أربعون متراً .

سبستياني : كيف قدرت ذلك ؟

جلسون : طبقاً لكمية امتداد الخيط والقوس الذي يصنعه في انحنائه .

وعلق سبستياني بقوله : نستطيع أن نحل المشكلة اعتماداً على حساب المثلثات أو

التشابه بين المثلثات ، ثم أجاب الطفل جلسون على الفور لو كانت الطائرة عالية فوق

مستوى رأسى مباشرة فستكون على ارتفاع عدد الأمتار نفسها التى أطلقتها ، ولكن لأن الطائرة بعيدة عن مستوى رأسى حيث تتجه إلى أسفل ، فإن ارتفاعها يكون أقل من عدد الأمتار التى أطلقتها . فقال الرياضى هنا إذاً حساب الدرجات .

ثم قام العالم الفيزيائى بتوجيه أسئلة للطفل عن تركيب بكرة الخيط ، فأجاب الطفل مستعيناً بالعمليات الأساسية الأربع ، وأردف قائلاً : الشئ الغريب هنا أن جلسون - كأمثاله من الأطفال - قد فشل فى مادة الرياضيات فى المدرسة ، وأن كل ما يعرفه عن الطيارة ليس له أى قيمة فى المدرسة لأن ما تعلمه كان فى سياق الخبرة العملية ، ولم يتكلم عن معرفته بلغة مدرسيه منظمة ومختزنة فى الذاكرة بطريقة ميكانيكية من نوع اللغة الوحيدة التى تعترف المدرسة بشرعيتها .

وهناك شئ أسوأ من هذا يحدث فى مجال اللغة حيث ما ينطق به أطفال الطبقات الدنيا من اللهجة أو تركيب الجمل أو المعانى ، يصبح دائماً عرضة للسخرية والاستهزاء.

ومع ذلك لم أقل أبداً - كما يعتقد عني أحياناً - ولم اقترح إطلاقاً أن أطفال الطبقات الدنيا لا يجب أن يتعلموا نخط لغة البرتغاليين المتعلمين فى البرازيل ، بل إن ما قلته أن مشاكل اللغة دائماً تثير قضايا أيديولوجية تصاحبها قضايا تتعلق بالسلطة . وإذا كان ثمة نخط لغوى للمتعلمين مثلاً فذلك يعنى بأن هناك نخطاً آخر لغير المتعلمين . وأتساءل من الذى حدد نخط غير المتعلمين ؟ إن ما قلته فعلاً هو أن نخط اللغة العاملة يجب تدريسه لأطفال الطبقات الدنيا وأن يقتضى تعليمه التركيز على ما يلى :

١ - إن لغتهم غير العاملة جميلة وثرية كاللغة العاملة (اللغة الفصحى) ولذلك لا يجب أن ندعوهم إلى الخجل من الطريقة التى يتحدثون بها .

٢ - من الضرورى أن يتعلموا القواعد الفصحى والنطق الصحيح حتى يستطيعوا :

(أ) القضاء على ما يشعرون به من نقائص فى طريق كفاحهم ليعيشوا حياتهم .

(ب) اكتساب أداة أساسية في هذا الكفاح ، يستطيعون بها أن يواجهوا الظلم والتمايز الموجه نحوهم .

وإنى لأشعر أن التفكير والعمل بهذه الطريقة ينسجمان مع اختياراتى التقدمية والمناهضة للنخبوية . وغنى عن البيان أن لست واحداً من هؤلاء الذين يعارضون (لولا) كرئيس لجمهورية البرازيل (في ذلك الحين) لأنه صرح بشيء غير حقيقى ، لكى أعطى صوتى إلى (كولر) الذى صرح بأشياء أكثر بعداً عن الحقيقة .

وفى النهاية ، فإن المدرسة الديمقراطية لا يجب فقط أن تكون مفتوحة دائماً على السياق الواقعى للطلاب حتى يتم فهمهم بشكل أصح ، وحتى تجرى ممارسة التدريس لهم بشكل أفضل ، بل يجب على تلك المدرسة أيضاً أن تتعلم من علاقتها بالسياق الواقعى وبذلك تعلن عن نفسها بأنها مدرسة ديمقراطية . وعليها أن تتصف بالتواضع الحقيقى لكى تتعرف ذاتها ، وبأنها منفتحة تستطيع عادة أن تتعلم من شخص لم يدخل المدرسة مطلقاً .

إن المدرسة الديمقراطية التى نحتاج إليها ليست هى تلك المدرسة ، التى يقوم فيها المدرس بالتدريس فقط والتلاميذ بالتعلم فقط ومدير المدرسة متمتعاً بكل قوى القيادة الطاغية فى المؤسسة .